التَّنَوُّعُ والحريَّة

أوليفييه روا(*)

تستهدِفُ مُداخَلتي بيانَ العَلاقةِ بينَ التنوُّعِ والحريةِ، وأعتقِدُ أنَّ هُناكَ خَطَرًا كبيرًا في أن تتعارَضَ حضارتا الشرقِ والغربِ، وفي ربطِ كلِّ حضارةٍ مِن خِلالِ دِينٍ مُعينٍ.

وهناك مُخاطرةٌ في أن ينغلقَ الناسُ في هُوِيَّةٍ مُغلقةٍ قد تعبِّرُ عن غايةٍ خاصةٍ، وأن يَنسَوا أن أيَّ دِينٍ ليس مجرَّدَ ثقافةٍ؛ فالأديانُ -لا سيَّما المسيحيةُ والإسلامُ- عالميَّةٌ، أي أنَّ هذه الأديانَ أوجدَتْ حضاراتٍ غنيةً لعبَتْ دورًا كبيرًا في التاريخِ، وليس معنى أنَّ الرسالةَ الدينيَّةَ تخاطِبُ كلَّ الثقافاتِ بأشكالِها المختلفةِ - أن تكونَ قابلةً للذَّوَبانِ في هذه الثقافاتِ؛ فالكنيسةُ الكاثوليكيَّةُ قد طوَّرتْ نظريةً للتأقلُمِ مع الثقافاتِ الأخرى، أي كيف تعملُ على إبلاغِ كلمةِ اللَّهِ إلى ثقافةٍ أخرى؟ كما أن الإسلامَ انتشرَ في العالمِ في فضاءاتِ ثقافاتٍ مختلفةٍ تمامًا.

لقد أَسرعَتِ العَولمةُ في إحداثِ فَجوةٍ بين الدِّينِ والثقافاتِ؛ فهُناكَ بكلِّ تأكيدٍ -وهو ما يُمثِّلُ إرثًا تاريخيًّا- مسيحيُّون شرقيُّون، ومسيحيُّون عَرَبٌ كانوا داخِلَ الثقافةِ العربيةِ وفي المحيطِ الإسلاميِّ، ولكنهم كانوا مسيحيِّين.

أمَّا اليومَ فإننا نشهَدُ فَجوةً مُتزايدةً بين الدِّينِ والثقافةِ بسببِ الهِجراتِ والتحوُّلِ مِن دينٍ إلى آخَرَ؛ فالشبابُ المسلمُ في فرنسا والأجيالُ الجديدةُ يُريدون أن يُصبِحوا فقط مُسلمينَ فرنسيِّين، وأن يكونوا مُسلمين يتكلَّمون باللغةِ الفرنسيةِ، إلَّا أنَّ مُشكلتَهم لا تتمثَّلُ في أن يتكلَّموا اللغةَ العربيةَ في حياتِهم اليوميةِ، ولكِنْ مُشكلتُهم في أن يستطيعوا ممارَسةَ الإسلامِ في بيئةٍ فرنسيةٍ؛ فطعامُهم ليس طعامًا شرقيًّا. وهُم يريدون -وهذا حقُّهم- أن يكونَ لهم طعامٌ حلالٌ في سياقٍ فرنسيٍّ، وأن يكون لهم وَجَباتٌ سريعةٌ، حتى ولو لم يكن ذلك فى حقيقةِ الأمرِ مِثاليًّا من الناحيةِ الحضاريَّةِ.

إن العولمةَ قد أثَّرتْ بشكلٍ سلبيٍّ على الأديانِ، وسأضربُ مثالًا على ذلكَ بداعشِ التي تُقدَّمُ -غالبًا وبحقٍّ- على أنها نموذجٌ للتعصُّبِ: إنها ليست مُنظَّمةً شرقَ أوسطيَّةٍ (شرقيةً)، بل عالميةً، وسأذكرُ رقمَيْنِ مُحدَّدينِ:

الأوَّلُ: ما الدولةُ التي تُرسِلُ شبابًا مجاهدينَ أكثرَ إلى سوريا بالنسبةِ إلى عددِ سُكانِها من المسلمين؟ أقولُ -وانتبِهوا جيدًا- ليس بالنسبةِ لعددِ السكانِ، ولكن بالنسبةِ إلى عددِ المسلمين بها؟ إنها حقًّا بلجيكا؛ فإن بلجيكا تُرسلُ هذه المرةَ مِن الجهاديِّين بالنسبةِ لعددِ المسلمين أكثرَ مما تُرسِلُه مصرُ، تليها تونسُ في الدرجةِ

الثانيةِ. كما نعلمُ جيدًا أن ٥٠ مِن مُقاتلي داعشٍ يأتون مِن العالَمِ أجمعَ وليسوا عَرَبًا.

الثاني: هو أن ٢٢ مِن الجهاديِّين الذين ينضمُّون إلى داعشٍ هُم ممن اعتنقوا الإسلامَ حديثًا، وهذا يعني أنهم ليسُوا مُسلمين أصليِّين اتَّجهوا إلى التطرُّفِ، وهم كذلكَ ليسُوا شبابًا يؤمنون بالعَوْلمةِ ويبحثون عن قضيةٍ عالمَيةٍ تُعطيها لهم داعشٌ اليومَ.

وأتوقَّفُ عند النقطةِ الثالثةِ قليلًا، وأشيرُ إلى أن الثقافاتِ تتنوَّعُ بشكلٍ ملحوظٍ، ولنأخُذِ الغربَ مثالًا: فإنه يقالُ إن الغربَ مسيحيٌّ، ونقولُ: هذا خطأٌ مِنَ الناحيةِ الإحصائيةِ؛ لأن المسيحيِّين الذين يُمارِسون مسيحيَّتَهم في الغربِ الآن يُمثِّلون ما بين ١٠ إلى ٢٠؛ فالغربُ اليومَ إذَنْ عَلمانيٌّ.

قد يُقالُ: نعم، ولكنَّ العَلمانيةَ الغربيةَ نَتاجُ المسيحيةِ، لكِنْ مِن وِجهةِ نظرٍ قانونيةٍ، فلسفيةٍ، تاريخيةٍ، ولكنه -بشكلٍ واضحٍ- تتقاسَمُ الغربَ اليومَ صِراعاتٌ هي في أكثرِها نِقاشٌ حولَ القِيَمِ الأساسيَّةِ.

ماذا يَفعلُ إذَنْ عِلمُ الأنثروبولوجيا الخاصُّ بمجتمعٍ من المجتمعاتِ؟ وماذا تعني كلمةُ أسرةٍ؟ وما الاختلافُ الجنسيُّ؟ وما معنى النَّسَبِ؟ هذه أسئلةٌ أساسيَّةٌ.

ونَجِدُ الغربَ مُنقسِمًا تُجاهَ هذه الحالةِ، ولا يُمكِنُ إذن أن نقولَ أن هناك قيمًا غربيةً، ولا أدري ماذا تعني القِيَمُ الغربيةُ؟ وما الذي بَقِي مِن المسيحيَّةِ؟ ربما يُقالُ إننا لا نُدافِعُ الآنَ عن المسيحيةِ باعتبارِها هُوِيَّةً.

هُناكَ الكثيرُ مِن الأحزابِ الشعبيَّةِ التي تُريدُ الدفاعَ عن هُوِيَّةِ أوروبا المسيحيةِ، ولكنهم يُدافِعون عن هُوِيَّةِ أوروبا المسيحيةِ ضدَّ القِيَمِ المسيحيةِ، وكُرهُ الأجانبِ مثالٌ ودليلٌ على ذلكَ، فهو ليس قيمةً مسيحيَّةً. والشعوبيُّون الذين يَشُنُّون الحملاتِ ضدَّ الهجرةِ باسمِ الهُوِيَّةِ المسيحيةِ لأوروبا، إنما يتصرَّفون ضدَّ القِيَمِ المسيحيةِ؛ ولهذا فإنَّنا نرى بوضوحٍ أن الهويةَ والدِّينَ هنا يَتعارضان، وإذا كُنَّا نُريدُ أن نُدافِعَ عن القِيَمِ المسيحيةِ على وجهِ الخصوصِ؛ فإنه لابدَّ أن نُحارِبَ مَن يُريدون حَصْرَ المسيحيةِ في هُويةٍ محدَّدةٍ.

وإذا أرَدْنا اليومَ أن نَفهَمَ الشعوبيِّين ونَفهَمَ النموذجَ الفرنسيَّ للعلمانيةِ؛ فإنه لابد أن نعرفَ ما هو النموذجُ الفرنسيُّ للعلمانيةِ.

إنها رفضٌ لكلِّ ما هو دينيٌّ بشكلٍ عامٍّ، وكلُّ الإجراءاتِ التي اتُّخِذَت اليومَ في فرنسا تهدُفُ إلى إقصاءِ كلِّ ما هو دينيٌّ عن الحياةِ العامةِ، وهذا ما لا يُوجَدُ في قانون ١٩٠٥م الذي يُعَدُّ -إذا تجرَّأتُ على القولِ- قانونَ قُدسِ الأقداسِ بالنسبةِ للعلمانيةِ، وهذا القانونُ يُنظِّمُ الممارسةَ الدينيةَ في الحياةِ العامةِ ولا يُقصِيها.

وفي الوقتِ الراهنِ، نُلاحِظُ أنَّ كلَّ القوانينِ بلا استثناءٍ تتحدَّثُ عن الحجابِ في الجامعةِ، وعن الحلالِ وأمورٍ أخرى... وتهدُفُ كلُّ هذه الإجراءاتِ إلى إقصاءِ ما هو دينيٌّ عن الحياةِ العامةِ.

نقولُ: هذا مِن الإسلامُوفوبيا، وهذا مِن العُنصريَّةِ عندَ كثيرٍ من الناسِ. نعم إنها عُنصريَّةٌ، والنتيجةُ هي أن كلَّ الأديانِ قد تضرَّرَتْ من ذلكَ، وعندما تأتي محكمةٌ ألمانيةٌ لتحظُرَ وتُدينَ أسرةً مسلمةً لأنها مارسَتْ خِتانَ ابنتِها، فإن اليهوديةَ بكاملِها هي التي ينبغي أن تُوجَّهَ إليها تلك الإدانةُ.

وعندَما تحظُرُ دولٌ مجازرَ الذبحِ الحلالِ باسمِ الدفاعِ عن الحيواناتِ؛ فإن اليهوديةَ أيضًا ينبغي أن تُهاجَمَ، وإذا هاجَمْنا الإسلامَ واليهوديةَ فإننا نُهاجِمُ الممارساتِ الدينيةَ، وكذلك الدينُ.

وأقولُ: إن هذا ليس حِوارَ أديانٍ وثقافاتٍ مختلفةٍ، إنها مشكلةُ رجالِ الدينِ الذين يجب أن يُدافعوا عن أنفسِهم أمامَ ثقافةٍ علمانيةٍ أصبحَتْ أكثرَ هُجومًا، ولستُ بذلكَ ضدَّ العلمانيةِ، فأنا شخصيًّا رجلٌ علمانيٌّ، ولكنَّ تطوُّرَ العلمانيةِ اليومَ يتمُّ على حسابِ الحريةِ الدينيةِ، وهذه الحريةُ الدينيَّةُ هي واحدةٌ لكلِّ الناسِ، سواءٌ أكانوا مسيحيِّين أم يهودًا أم مسلمين.

وأرى -بناءً على ذلكَ- أنه لا بدَّ أن يكونَ هناكَ تحالُفٌ للأديانِ ضدَّ أيِّ ثقافةٍ سياسيةٍ، وهذا التنوُّعُ الذي نراه في الغربِ -وهذه هي الخلاصةُ التي أُريدُ أن أصِلَ إليها- نراه كذلكَ في الشرقِ وفي العالمِ الإسلاميِّ.

وما ينبغي أن نعتقدَ أن الشرقَ الأوسطَ يُمكِنُ أن تختلطَ فيه الثقافةُ والدينُ، وأن كلَّ الناسِ يَتقاسَمونها، فتلكَ صورةٌ شاعريةٌ جميلةٌ بلا شَكٍّ، وربما يُريدُ كثيرٌ من الحكامِ أن يُعطوها عن الشرقِ الأوسطِ.

وفكرةُ أن المجتمعَ واحدٌ في الدفاعِ عن القِيَمِ ضدَّ التغريبِ ليست حقيقيةً؛ فالربيعُ العربيُّ لا يُطالِبُ فحسْبُ بإجراءِ عمليةٍ ديمقراطيةٍ سياسيةٍ؛ بل بتحقيقِ التنوُّعِ في المجتمعِ، إنه مطلبُ الحريةِ الدينيةِ، ولا يُمكنُ أن نفصِلَ الحريةَ الدينيةَ عن الحريةِ الفرديةِ.

وأعتقِدُ أنه لا بدَّ مِن الكفِّ عن التفكيرِ في الحريةِ الدينيةِ باعتبارِها دفاعًا عن الأقليةِ؛ لأنها قبلَ كلِّ شيءٍ دفاعٌ عن الحريةِ الفرديةِ لكلِّ شخصٍ في اختيارِ دينِه، واختيارِ ألَّا يكونَ له دينٌ، وهذا الأمر يحدثُ فى العالمِ العربيِّ؛ حيثُ إن هناك كثيرًا من الشبابِ يُعلنون الإلحادَ، وهذا شيءٌ جديدٌ.

هناكَ إذًا الكثيرُ مِن الملحدينَ، ولكنهم لا يقولون شيئًا، ونرى اليومَ شبابًا يُريدون أن يُعتَرَفَ بأنهم مُلحِدون. حسنًا، ولكن هل هذا إيجابيٌّ أم سلبيٌّ؟ يُمكنُ

أن نَعتقِدَ ما نُريدُ، ولكن هُناكَ اليومَ مُطالبةٌ بالتعدُّديةِ، والنتيجةُ الملموسةُ لذلكَ هي أن الدستورَ التونسيَّ -على سبيلِ المثالِ- أُدخِل فيه بابٌ يُعنَى بحُريةِ المعتقَدِ.

إن الحريةَ الدينيةَ هنا -ونقصِدُ الحريةَ الدينيةَ باعتبارِها حقًّا للأقلياتِ- وحريةَ المعتقَدِ هي حقُّ كلِّ فردٍ في اختيارِ دينِه، أو ألَّا يكونَ له دِينٌ.

ومِن هُنا نَرى كيفَ تسيرُ الأمورُ في العالَمِ الإسلاميِّ، وأن هناك تنوُّعًا كبيرًا، ولكي يكونَ الدِّينُ صحيحًا يجبُ أن يتمتَّعَ الناسُ بحُريةِ الاختيارِ، وإذا أخَذْنا بالدينِ إلى خانةِ الهُوِيَّةِ، فإننا نقتُلُ الجانبَ الروحانيَّ، ولن يكونَ هُناكَ رُوحانيَّةٌ إلَّا إذا كان هُناكَ حُريةٌ.

* * *